جراهام ولاس

الدكتور: محمود أبو زيد

حياته وتطوره الفكرى :

جراهام ولاس فيلسوف سياسي وعالم اجتماع بريطاني ولد فى عام ١٨٥٨ في احدى قرى اقليم كورنوول Cornwall جنوبي غرب انجلترا من اسرة يشتغل اغلب افرادها بالتعليم والدين . ولا تلقي الكتب القليلة التي عرضت لحياته ضوءا كافيا على سنوات صباه المتاخر التي قضاها فى لندن بعدما نزح اليها ، ولكنها تؤكد ان المراحل اللاحقة ، خاصة أيام دراسته بالجامعة ، هي ما يعتبر المحددات الرئيسية لميوله واتجاهاته .

وقد التحق فى عام ١٨٧٧ بكلية كوربس كريستي Corpus Christi بجامعة اكسفورد ، وعمل فور تخرجه مدرسا فى هايجيت سكول Higate School بلندن ، وظل يمارس هذه الوظيفة الى أن اعتزلها في عام ١٨٨٥ . وفي ذلك الوقت بدا اهتمامه بالسياسة والحياة العامة يتخذ صورة تعاطف مع الحركة الاشتراكية الانجليزية النامية ، فانضم فى ابريل من ذلك العام الى الجمعية الفابية Fabian Society وبدا صار رابع الاربعة الكبار مع سيدني ويب Webb وسيدني اوليفيير Olivier وجورج برنارد شو Shaw وكلهم يرجع اليهم الفضل الاكبر فى تحديد مسار الخط الاشتراكي الذى اتخذه الفكر السياسي الانجليزى ، وظهر واضحا فيما اتبعه حزب العمال البريطاني بعد ذلك من برامج وسياسات .

وتتسم هذه الفترة من حياة ولاس ، على الاقل لحين استقالته من الجمعية الفابية فى يناير ١٩٠٤ بالنشاط والعمل الزائدين . فقد اشترك مع الفابيين في تأسيس مدرسة لندن للاقتصاد والعلوم السياسية ، وأصبح محاضرا بها منذ افتتاحها في عام ١٨٩٥ ، كما شارك فى احداث بلده السياسية فخاض خمسة انتخابات بلدية فى مدينة لندن ، وانتخب رئيسا لمجلس التعليم مرتين واحدة فى عام ١٨٩٤ واخرى في عام ١٨٩٨ ، وساهم بنصيب وافر من الجهود في الهيئات العامة واللجان الملكية . ثم ازداد الحظ اقبالا عليه فأخذت شهرته تتزايد خارج بريطانيا وبوجه خاص الولايات المتحدة الامريكية فدعته جامعة ييل ليكون استاذا محاضرا بها ، كما عمل محاضرا فى المدرسة الجديدة بنيويورك عام ١٩١٩ . وفىعام ١٩٢٠ كان قد بلغ الثانية والستين من عمره فأوصى بان يخلفه الاستاذ **هارولد لاسكى** فى مكانه كأستاذ للعلوم السياسية بجامعة لندن . وعاش في لندن بقية حياته متفرغا للبحث والكتابة والتاليف الى أن توفى عام ١٩٣٢ .

ويتضح من كل هذا أن هناك اكثر من فترة واحدة من فترات التحول فى حياة ولاس. ولو شئنا أن نستخلص اهم المعالم التي تتميز بها تلك المعالم التي تلقى ضوءا على افكاره وتفسر اتجاهاته لأمكن تحديد ذلك فى بضعة أمور هي :

اولا : تضافر تربيته الريفية وانتماؤه المسيحي على طبع وجدانه بطابع خاص يتميز على حد تعبير **بياتريس ويب** (١) بمزاج حساس وبغيرية اجتماعية وحمية أخلاقية ، وهي صفات ظلت تميز تصرفاته حتى بعدما كبر وشب عن الطوق .

ثانيا : التحاقه بجامعة اكسفورد أكسبه نظرة واسعة تعدت الحواجز الاجتماعيةالتي عادة ما تصنعها التقاليد الاكاديمية ، كما أتاح له فرصة الالتقاء بكثير من المؤثراتالتي أثرت فيه . ويعتبر **لقاؤه بجون راسكين** Raskin فى هذه المرحلة أمرا حاسما ، وليس أدل على ذلك من أن رد الفعل الجمالي ، الذى أثاره راسكين ضد التقدم الآلى ومساوىء النظام الصناعي السائد فى انجلترا آنذاك ، قد ظل مسيطرا عليه وملازما له خاصة في تلكالمراحل المتأخرة وهو يبحث عن كيفية تنظيم المجتمع العظيم بما يتيح أكبر قدر من السعادة لأفراده .

ثالثا : تشعب اهتماماته الفكرية وتنويعها، فعلى الرغم من أنه تخصص فى اكسفورد فى دراسة العلوم السياسية ، فقد كان مهتما بعلمالنفس اهتماما أصيلا ومباشرا ، وحسبنا ان نذكر فى هذا الصدد التشابه البالغ فى المنهج بينه وبين **والتر باجيت** على وجه الخصوص حيث وضح استعمالهما للمنهج السيكوسوسيولوجي ، واستعانتهما فى تفسير الظواهر الاجتماعية والسياسية بالحقائق السيكولوجية ، وأسس وافتراضات علم النفس ، ويعترف ولاس نفسه بتأثيره الشديد بقراءاته فى علم النفس فنجده فى مقدمته للطبعة الاولى لكتابه « الطبيعة البشرية فى السياسة » في عام ١٩٠٨ يقول : **« ومنذ سنوات طويلة مضت أمدتنى كتاب الاستاذ وليم جيمس** Principles of Psychology **بالرغبة الواعية فى التفكير السيكولوجي سواء في عملى كسياسي أو كمعلم »** (٢) . كما بدا اهتمامه بعلم النفس الاجتماعي اكثر وضوحا . وهو يذكر ذلك

---

(١) Webb, Beatrice: Our Partnership, London and New York, Longmans, Green & Co., 1948. p. 37.

(٢) Wallas, G; Human Nature In Politics, Constable & Co. Ltd., London, 1908.

أيضا فى مقدمته للطبعة الثانية للكتاب نفسه فيقول « ولم اغير هنا كثيرا من الطبعةالاولى. اما التغيير الاساسي الذى احدثته فقد جاء بسبب قراءتي كتاب Social Psychology للاستاذ **وليم ماكدوجال** وبخاصةتحليله الدقيق الممتع للغريزة » .

رابعا : انتماؤه لفترة طويلة تزيد على التسعة عشر عاما الى الجمعية الفابية ، ثم انفصاله عنها ينبىء عن تغيرات جذرية طرات على تفكيره . ولقد **عبرت مارجريت كول** عن هذا المعنى بقولها : « **ان مقت جراهام ولاس للروتين ، وهو الامر الذى اخذ يتزايد مع تقدمه في السن ، كان خليقا على اى الاحوال بان ينفره من الفابيين ويبعده عنهم .** » (٣) ومع أن هذا يعتبر صحيحا بوجه عام فقد كانت حرب البوير والآثار التي خلفتها فى تفكيره بمثابة العوامل الحاسمة فى هذه القطيعة ، ذلك أن تفكيره كان قد بدأ يخضع لنوع من التطور ابعده عن النظرة الامبريالية الضيقة وانطلق به الى نظرة اكثر شمولا هي النظرة العالمية ، وهذا يتبدى فى بعض فصول كتابه الرئيسى « الطبيعة البشرية فى السياسة » حيث تظهر بوضوح مفارقة لمبدأ الانانية الامبريالية ، وحلول نظرة الى مشاكل الجنس والاستغلال المنظم للكرة الارضية من زاوية النزعة الانسانية البحتة .

خامسا : انخراطه في الحياة العامة لئن كان زوده بمعرفة مباشرة بطبيعة المجتمع الصناعيالمتقدم ومختلفالاتجاهات والتيارات التي تعمل فيه وصلة ذلك كله بواقعالعلاقات الدولية نفسها ، فقد اتاح له كذلك الوقوف على كثير من أسباب ومظاهر التخبط فى هذه الاتجاهات ، وساعده رفضها واستقلاله عنها على أن يتخذ مواقف تبدو وكأنها تتعدى الحواجز بين الايديولوجيات المختلفة ، وهو يبحث عن الوسائل والطرق الكفيلة بضمان سلام عالمي حقيقي . وهو في هذا الصدد يقول فى خطاب بعث به فى عام ١٩١٥ الى صديقه ادوارد برنشتاين « **ان الانسان يعيش الآن يومه فحسب دون ان يجرؤ على التفكير فى المستقبل . ولكنى اعود احيانا فآمل عندما يبزغ فجر السلام ان نلتقى انت وانا لنتصافح ، وليخبر كل منا الآخر بان أيا منا لم يفكر لحظة تفكيرا شريرا فى صاحبه .. وبعدها نجلس لنفكر سويا فيما اذا كان بمقدورنا ان نساعد بوسيلة او باخرى فى شفاء المدنية من جراحها .** (٤)

هذه المعالم الرئيسية فيحياة ولاس يمكن ان تكون مؤشرات للتطور الذى لحق فكره . واذا كان البعض قد حاول أن يتخذ من هذه المعالم وما صاحبها من تشعب فى اهتماماته دليلا على وقوعه فى غير قليل من التناقض ، الا أن الراى عندى انه حتى اذا صح الجانب الاول فيما يتعلق بتعدد اهتماماته وتشعبها ، فليس الامر كذلك فيما يتعلق بباقي القضية. فالواقع أن هذه الاهتمامات كانت بمثابة حلقات في كل متصل ولم يكن اهتمامه بالعديد من الموضوعات ينبىء عن انتقال مفاجىء وانما هو فى الاصل انعكاس للتدرج في الاهتمامات ذاتها وهذا أمر طبيعي بالنظر الى تطور تفكيره على مر السنين ، خاصة اذا تذكرنا ما أشرنا اليه من عمق تفاعله بالعمليات والواقع الاجتماعي والسياسي الذى كانت تعيشه انجلترا الفيكتورية من حوله . بل

---

(٣) Cole, M.: The Story of Fabian Socialism, Heinemann Educational, Ltd., London, 1961. P. 55.

(٤) Peter, G: The Dilemma of Democratic Socialism E. Bernstein's Challange to Marx, Columbia University Press, N.Y. 1954. P. 277.

لعل ذلك بالذات ـ اقصد تصوره الدينامي للسياسة والحدث الاجتماعي ـ هو ما يمثل جوهر اسهامه الحقيقي كمفكر سياسي وفيلسوف اجتماعي عالمي النزعة .

● ● ●

علم النفس والسياسة عند ولاس

يتعين علينا قبل أن نخوض فى الحديث عن فكر ولاس السياسى أن نشير بوجه خاص الى أن اية محاولة لعرض هذا الفكر لا بد وان تأخذ فى اعتبارها جديا العلاقة العضوية الوثيقة التي يقيمها بين علم النفس من ناحية وكل ما قال به في مختلف مجالات الفكر من ناحية ثانية . ويدفعنا الى التركيز على ذلك عدة أسباب :

اولها: ان علم النفس يقوم عنده بمثابة اطار اعم واشمل تدور من خلاله معالجته للموضوعات المختلفة التي عرض لها ، وانه يقدم الاساس النهائي الذى يرتكز اليه تفسير الظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفسير البواعث التى تحرك الاعمال فى داخل المؤسسات والمجتمعات . ومن هنا فان فهم سيكولوجية المجتمع والسياسة ينبغي ان يقوم على اعتبار الخصائص الفردية والبيئية التي تؤثر فيها .

وثانيها ان فكره السياسى، وهو مايعتبر فى راى البعض اهم ما قدمه الانجليز للفكر السياسى فى القرن العشرين ، قد بنى اساسا على وجهة نظر معينة وفهم خاص للطبيعة البشرية .

وثالثها ان التحليل السيكولوجى كان مدخله كذلك لفهم علاقتنا بحضارتنا الحديثة التي تبلورت في مظاهر المجتمع الصناعي الحديث . ومن هنا استحالة ان ينعزل اى برنامج بنائي او محاولة للتنظيم الاجتماعي عن الفهم الواعي لسيكولوجية المجتمع والسياسة باعتبار أن ذلك يتيح قدرا كبيرا من التناسق والتوافق بين الطبيعة البشرية والظروف المادية المرتبطة بحقائق التحضر وثورة العصر الصناعية . وفى ضوء هذه الاعتبارات يكون من السهل رؤية الخيط بين النماذج المختلفة لتفكيره بما يؤكد ماسبقت الاشارة اليه من وحدة فكرية تعتبر خاصة مميزة لهذا الفيلسوف .

ويمكن القول بان تفكير ولاس السياسى يتمثل في كتاب « الطبيعة البشرية فى السياسة » الذى صدر في عام ١٩٠٨ وكتاب « المجتمع العظيم » الذى نشر بعد ذلك بستة اعوام كاملة . واذا كنا نستطيع وصف موضوع الكتاب الاول بصفة عامة بانه محاولة لاظهار خطأ انصار المذهب العقلى فى السياسة، اى افتراض أن الكائنات البشرية تتصرف فى السياسة الى حد كبير بناء على دوافع عقلية واسس من التفكير المنطقي ، فان الكتاب الثاني يهتم في اغلبه بتصحيح اخطاء اللاعقلية السياسية واستكشاف امكانات تنظيم الفكر والادارة فى تحقيق الاهداف الاجتماعية . مما جعل الكتاب في صورته الكاملة بمثابة تحليل سيكولوجي للتنظيم الاجتماعي العام الذى يظهر فى الدولة الحديثة . فكأن هناك اذن اتجاهان متكاملان لئن جاءا انعكاسا طبيعيا للظروف التي احاطت بالنظرية السياسية والاجتماعية ، فهما لازمان كذلك لبرنامجه البنائي الذى يوصف فى جانب منه بانه دراسة لظروف المشكلة بما يعمل فيها من عوامل ظلت تعوق امكانية اقامة التفكير السياسي على اختبار صحيح للطبيعة البشرية ، وفي الجانب الآخر دراسة للاثار المحتملة لهذا الفهم الجديد للطبيعة البشرية لا بالنسبة الى علم السياسة واتجاهات القوى السياسية ذاتها فحسب ، ولكن ايضا بالنسبة الى امكانية تنظيم المجتمع الصناعي الحديث وتطويره .

مفهوم الطبيعة البشرية :

عبر ولاس نفسه تعبيرا واضحا عن الاساس الذى ينبني عليه فهمه للطبيعة البشرية فى قضية اساسية فقال « ان اى شخص يعتزم ان يقيم تفكيره السياسي على اساس من اعادة فحص الطريقة التى تعمل بها الطبيعة البشرية ... يجب ان يبدأ بمحاولة التغلب على ميله هو نحو المبالغة فى تقدير اناحية العقلية في الجنس البشرى » (٥) ولو امعنا النظر في هذه القضية لوجدنا انها تنطوى على امرين اثنين . **الاول** هو انه يشير بذلك اشارة صريحة الى الافتراض الذى يتضمنه مذهب المنفعة والقائل بأن الكائنات البشرية تتصرف فى السياسة الى حد بعيد بناء على دوافع عقلية واسس من التفكير المنطقى يفكر بها الانسان فى بعض الغايات الى يرغب فى تحقيقها، ومن ثم يحسب الوسائل التى تمكنه من الوصول الى هذه الغايات . **اما الامر الثانى** فهو أن ولاس يرفض بشدة هذا الافتراض العقلي . ومع ذلك فهذا الافتراض هو الاساس الذى يقوم عليه معظم التفكير التحررى والديموقراطي في موضوع السياسة . ولاعجب من ثم ان التحررية ظلت عديمة التأثير اذ تتعلق بفكرة خاطئة عن التصرفات البشرية .

ولعلنا نستطيع في ضوء هذا الانتقاد أن نزيد تصوره الذاتى للطبيعة البشرية ايضاحا . فقد لاحظ منذ قراءاته الأولى أن المفكرين الاغريق نجحوا فى وضع اللبنات الاولى للمدنية الحديثة لانهم أصروا على ايجاد جواب للسؤال : اى أنواع الحياة هى الأفضل ؟ واذ حاول **ارسطو** أن يجد جوابا فقد ذهب الى أن أصل المدينة « الدولة » هى أنها تجعل فى وسعنا ان نعيش ، ومبرر وجودها أنها تجعل فى وسعنا أن نعيش عيشة طيبة . ومع ذلك فحياة مجتمع عصرنا كلها تؤكد ان المشاكل التى تحطم الاعصاب لا زالت تحول دون تحقيق ما ذهب اليه ارسطو ، ومن ثم اصبح التساؤل الملح يقوم فى الكيفية التى يتسنى لرجل الدولة الحديث أن يفكر بها وأن يشرع بما يكفل هذه الحياة الطيبة ويصونها (٦) .

ولقد كانت هذه القضية الشغل الشاغل لمفكرى الماضى وفلاسفته السياسيين **منذ افلاطون وارسطو الى بنثام وجون ستيوارت مل** . ويرى ولاس أن كلا منهم كان له وجهة النظر الخاصة به في الطبيعة البشرية . واذ يشير الى التحولات التى طرأت على هذا المفهوم مؤكدا أن دراسة الطبيعة البشرية قد تقدمت على ايدى علماء النفس تقدما ملحوظا منذ اكتشاف التطور البشرى ، الا أنه يعود فينبه الى أن ذلك قد تم دون أن يؤثر فى دراسة السياسة أو أن يتأثرها بها ، ومن هنا كان حكمه القائل بأن دارسي السياسة قد صاروا « يحللون الانظمة السياسية ويتجنبون تحليل الانسان » (٧) وكانت نتيجة ذلك الفعل بين دراسة السياسة وعلم النفس كل الآثار التى اضرت بعلم السياسة وطريقة تطبيقه على السواء .

ولقد كان مذهب بنثام وجيمس مل والاحرار الذى ساد القرن التاسع عشر مسئولا عن ذلك . فتصورهم الأساس القائل

---

(٥) Human Nature In Politics; (Op. cit) P. 27.

(٦) Human Nature in Politics; Third Edition (Second Impression) 1927 P. Six.

(٧) Ibid. p. 14.

بأن جميع الدوافع ليست الا نتيجة لهدف سبق تصوره يعكس فهما سطحيا للطبيعة البشرية . وحتى بافتراض ان التصرف يأتى مسبوقا بحساب للاهداف والغايات فما يراه ولاس هو ان الفعل العقلى لعملية الحساب ذاتها انما ينتج عن « نزعة » لأن نحسب أو مصاحبة لها ، وهى نزعة قد لا يكون لها أيضا اية صلة بأى تقدير سابق للوسائل والغايات . وكل ما فى الامر ان التكوين الذى ورثناه والذى يتكون فى احد جانبيه من مكونات وحقائق الغريزة هو وحده الذى يجعلنا نجنح الى الاستجابة عن طريق رد الفعل بطريقة معينة لبواعث بذاتها . اما السبب في هذه الاستجابة فهو أن مثل هذه الافعال المنعكسة أفادت في المحافظة على النوع فى الماضي ، وبعض هذه الاستجابات هى ما يطلق عليه بالتحديد « غرائز » اى نزعات وصول نحو تصرفات او سلسلة من التصرفات المحدودة والمستقلة تماما عن اى توقع شعورى لنتائجها المحتملة .

ونحن لا نريد الآن ان نخوض كثيرا فى تفاصيل تحليل ولاس للميول والنزعات ، او مصطلح الطبيعة البشرية كما يفضل هو أن يعبر به عن المجموع الكلى لهذه الميول والنزعات (٨) . ولكن الملاحظ انه لا يعطي اجابة حاسمة لمسألة بذاتها هى انه اذا كان التصرف لا يعدو أن يكون رد فعل منعكس فحسب وليس نتيجة تدبير ، فما هو التفسير اذن لما يظهر من ربط وصلة بين الوسائل والغايات ؟ لقد عرف وليم جيمس الغريزة بأنها القدرة على التصرف بطريقة تؤدى الى نتائج معينة دون تفكير سابق فى النتائج ودون تدريب سابق على القيام بهذا التصرف . (٩) واذا كان من المسلم به اليوم أن للنزعة تاريخا في التطور يسبق كثيرا تاريخ العمليات العقلية التى ظهرت في وقت اكثر حداثة والتى قد توجه النزعة او تغيرها ، فقد كان ذلك دافعا لولاس الى أن يفسر الأمر بصورة خاصة ، فالربط بين الوسائل والغايات ليس نتيجة تدبير من جانب الفاعل ولكنه احياء لما تم فى الماضى من بقاء الأصلح من بين عدة اتجاهات مختلفة فى الفعل . ويتضمن مثل هذا التفسير انتقادا لكثير من التفسيرات التقليدية ، فعلى الرغم من شيوع تعريف الغريزة بأنها اتجاهات فطرية متفرقة يميل كل منها نحو نوع بذاته من التصرف أو سلسلة من التصرفات كما كان يرى بنثام على سبيل المثال ، ففي رأى ولاس انه ليس هناك ما يدعو الى القول بأن مجموعة النزعات الموروثة ، حتى فى الحيوانات غير البشرية ، كانت مقسمة في اى وقت على هذا النحو ، بل ان تطور النزعة له تاريخ طويل جدا معقد ، وأصل كثير منها يرجع الى مرحلة ماقبل التبرير العقلى وان كان يخفي هذه الحقيقة ما طرأ على هذه النزعات خلال تاريخ الفرد من تعديلات متزايدة بتأثير الاكراه والعادة والتفكير . والامر كذلك بالنسبة الى الحيوانات غير البشرية فلديها بدورها القدرة على تكييف نزعاتها الموروثة وتعديلها . وانها لمفارقة عجيبة أن يظل التفكير السياسي بعيدا عن ادراك هذه الحقائق فيظل الميل المسيطر هو النظر الى النزعة على أنها عملية فكرية مصبوغة تماما بالطابع العقلى دون أن نتذكر أننا في السياسة لا نتعامل مع غرائز واضحة ومحددة ولكن مع ميول ونزعات كثيرا ما تكون قد ضعفت خلال التطور أو تحولت الى استمالات أخرى ، وانما لا تعمل بصورة بسيطة بل فى مجموعات متناسقة او متعارضة ، ومن هنا فلا يبدو مستغربا ان يجد السياسيون

---

(٨) The Great Society; (A Psychological Analysis); Macmillan & Co. Ltd., London 1914. P. 21.

(٩) James W.: Principles of Psychology. Pr. II. P. 383.

انفسهم فى واجهة صعوبة بالغة عند محاولة الربط بين أسباب الافعال وآثارها ، وهو الوضع نفسه الذى تردت فيه عقلانية النفعيين .

• • •

الاستدلال اللاعقلى فى السياسة :

ان المفكرين السياسيين من انصار المذهب العلقى لم يفترضوا فحسب أن الفعل السياسي هو بالضرورة نتيجة لنوع من الاستدلال فيما يتعلق بأفضل الوسائل لتحقيق أهداف سبق تصورها ، ولكنهم افترضوا كذلك ان كل الاستدلالات من نوع واحد ، وانها نتيجة عملية واحدة من التفكير المنطقى . وفي رأى ولاس أن هذا الافتراض يتشابك مع عاداتنا في التفكير السياسي ، ومن ثم حاول التدليل على خطئه وعدم صحته . فالى اى حد يصح القول اذن بان الناس عندما يكونون استدلالات فيما يتعلق بنتائج أفعالهم السياسية يكونونها بواسطة التفكير المنطقى ؟ ذلك هو السؤال المهم الذى جاءت اجابته عليه حاسمة وهى أن العقل له بالكاد دور صغير في الحياة السياسية .

والحق انه ليس هناك مايدعو الى الدهشة فيما يتعلق بهذه النتيجة ، فنحن اذا اعتبرنا الصعوبة البالغة في تحديد الفوارق المحددة بين الحالات العقلية المختلفة ، اذ قد يحدث كثيرا ان تتداخل العاطفة والنزعة والاستدلال ، وحتى ذلك النوع الخاص من الاستدلالات الذى يسمى تفكيرا منطقيا وتكون كلها جوانب متشابكة لتجربة ذهنية واحدة ، فيكون من السهل القول ان عملية الاستدلال كلها ، العقلى منها واللاعقلى ، تقوم على الحقيقة الاولية القائلة بأن الحالة العقلية تستدعى حالة عقلية أخرى . ويفسر ولاس ذلك بامر من اثنين فاما ان الاثنتين كانتا مرتبطتين في تاريخ الفرد ، او أن صلة ما بين الاثنتين قد اثبتت نفعها في تاريخ الجنس . وايا ماكان الامر فلا يعنى ذلك سوى أن هناك مجالا واسعا للاشعور والبديهات اللاعقلية في عملياتنا الذهنية ، وليس فقط الاعندمايقبل المرء على اتخاذ قرار خطير يدخل في نطاق التفكير المنطقى المحدد . وتكمن اهمية ذلك كله فى ان معظم الافكار والآراء السياسية لدى اغلبية الناس ليست اذن نتيجة تفكير منطقى ولكنها نتيجة استدلال لاشعورى او شبه شعورى تدخلت العادة بدرجة ملحوظة فى تحديده ، بمعنى ان معظم الآراء السياسية انما نصل اليها بكيفية لا عقلية ، الامر الذى يمثل في الواقع ضربة قاصمة الى وجهة النظر التحررية التى تمسكت تمسكا أعمى بوجهة نظر عقلية فى الطبيعة البشرية .

ويجب ان لا يساء فهم موقف ولاس هذا ، فالملاحظ لوجه الغرابة ان الكثيرين مازالوا يتمسكون بالفرض العقلى القديم ، مبررين موقفهم بأن مثل هذه الاستدلالات اللاعقلية لايمكن ان تمثل الا التفاهات في التفكير السياسى ، وذلك على اعتبار ان القرارات المسئولة لايمكن ان تأتي الانتيجة للتفكير الواعى المنطقى ، كما ان تقدم البشرية لايمكن ان يكون قد تم الا باختراع طرق في التفكير . والمسألة ليست كذلك فى الواقع ، ذلك ان ولاس لم يهدف فى الحقيقة من وراء تحليله سوى ان نكون اكثر عقلية او على الاقل اكثر تعقلا . وعندما يترك الانسان الطابع غير العقلى لمعظم الوان السلوك الاجتماعى ، فلسوف يخفف هذا شدة الخطر على انبل القضايا . بمعنى آخر ان ولاس لم يكن لاعقليا الا بالقدر الذى تتمثل به خطورة ان نأخذ الاوهام على انها واقع الاشياء ، فما يؤمن به هو أن تتولى القوى العقلية فى المجتمع ، بل وفى داخل انفسنا قيادة القوى العقلية ، وهذا امر طبيعي . بل ان الامر يتطلب الآن مذهبا عقليا اكثر عمقا وأبعد غورا يفهم لا عقلية الناس كما يفهم تلك المجموعة من العواطف والعادات

والميول المتحيزة التى تحركهم ، واستغلال ذلك الفهم فى قيادتها وتوجيهها بصورة افضل نحو حياة اكثر سعادة . وليس فى ذلك شىء جديد، فهو مع المعرفة الجديدة فى عصرنا على نحو ما تكشف او تستهدف الكشف عنه الكتابات السيكولوجية والاجتماعية باستمرار .

ومن الناحية الاخرى يجب كذلك ان لا يؤخذ هذا التحليل السابق على ان والاس ينتهى الى موقف يعارض قوله بأن العوامل الفرزية هى السائدة ، حيث يبدو الآن ان الانسان مدفوع بالطبيعة الى التفكير مثلما الفعل الفرزى . فكل ما فى الامر ان المسألة تستدعى انتباها واعيا الى ان التعقل والتفكير المنطقى فى السياسة لايزالان بالغى الصعوبة ، ويلزم فهم اعمق لاكبر قدر من حقائق الطبيعة البشرية يعوض النقص الذى طالما شاب المفهوم، فقد يتيح ذلك في النهاية الوصول الى اساس سليم للتفكير السياسى المنطقى يكون اكثر احاطة بجوانب المشكلة وابعادها بدلا من الاستمرار فى التعلق بوهم امكانية الوقوف على حل اولى لجميع المشاكل السياسية من قوانين او مبادىء نهائية متسلطة وذلك اقسى ما تضمنته اخطاء المذهب العقلى فى التفكير السياسى .

المراجعة السياسية :

مهد التحليل الذى قدمه ولاس للطبيعة البشرية الى ان يعتبر الدور الصحيح الذى تقوم به فى المجال السياسى ، وقد تم له ذلك بمراجعته وتحليله لمواقف بعض الفلاسفة والمفكرين ممن قامت بالدوافع والنزعات اساسا لبحثهم الاجتماعى . ويرى ولاس ان **البنثامية** تمثل انجازا ضخما ، ولكنه في الوقت نفسه كان يرى ضرورة اعادة تفسير علم النفس البنثامى الذى حاولت نفعية القرن التاسع عشر ان تجعله اساسا كافيا للنظرية الاجتماعية. ومن هنا تركيزه على اظهار الجانب العقلى الذى انطوت عليه ، الامر الذى لا يمكن فصله عن العناصر الاخرى التى اشتمل عليها المذهب كمبدأ المتعة والالم ومبدأ اكبر قدر من السعادة لاكبر مجموع .

لقد ضمن **بنثام** مذهبه ـ كما يراه ولاس ـ ثلاثة افتراضات اساسية هى ان الدافع البشرى الوحيد الأبعد أثرا ، هو الرغبة فى الحصول على المتعة وتجنب الالم ، وان الالم والمتعة هما النهايتان السلبية والموجبة لتطور تدريجى فى الشعور ، وان حالة الشعور التى يطلق عليها السعادة هى بذاتها تلك التى يطلق عليها لفظ المتعة . ويثير الافتراضان الاخيران بعض الصعوبات : فالاحساسات التى تسمى آلاما ليست مجرد سلب بسيط للاحساسات المسماة متعا ، كما ان **الشعور بالانشراح** Pleasentness **والتكدر** Unpleasentness ليس كالشعور المسمى متعة والما ، وان مشاعر الانشراح هذه وعكسها ليست كحالات الشعور المسماة بالسعادة وبالشقاء . ان ولاس يدلل على هذا بما توصل اليه علم النفس التجريبى فى اختباراته احساسات الالم وتغايرها عن مشاعر الكدر . ففى اجزاء معينة من اجسادنا ثمة اعصاب تتصل بمراكز الاحساس بالالم واخرى تنتج احساسات المتعة ، وجنبا لجنب هذه الاحساسات يوجد احساس الالم ليس ضدا له او نقيضا فكان الاختلاف هو اذن اختلاف فى النوع قبل اى شىء .(١٠) ولم يكن من المستغرب ان يربط ولاس ذلك بما نجده عند ارسطو ، فكما ان السعادة بهذا المفهوم كانت المادة الموضوعية لاخلاقياته فهى لم تكن مجرد خير في ذاتها ولكن مرشدا كافيا للحياة الاجتماعية .. واذا كان تمييز ارسطو بين المتعة والسعادة ، واعتقاده ان

(١٠) The Great Society. (op. cit) P. 103

السعاده سوا فر للانسان الذى تدربت ارادته في بيئة دولة منظمة تنظيما جيدا هما ما جعلا توحيده السعاده والخير الاجتماعى امرامقبولا، فان النفعيين ماكادوا يوحدون المتعة والسعادة حتى جوبهوا بهوة منطقية لم ينجحوا فى ملئها بين مبدا اللذة السيكولوجى ومبدا اكبر قدر من السعاده لاكبر مجموع كاساس للتنظيم الاجتماعى .(١١) ذلك اننا اذا قبلنا القضايا القائلة بان السعادة هى المتعة وان المتعه هى الخير الوحيد ، فان مبدا أكبر سعاده لاكبر مجموع يثير بالضرورة سؤالا عما اذا كان لنا ان نتوقع ان كل انسان سوف يكون موجها فى عمله الاجتماعى برغبته الجارفة فى خير اقرانه ؟ وقد فشل بنثام في حل هذه المسألة حلا مرضيا ، ذلك ان اكتشافه المتعة باعتبارها الخير الانسانى الوحيد ، وايضا رغبته في نشر هذا الاكتشاف ظهرا له وكانهما جانب من كشف او منظور واحد ، ومن هنا كان ايمانه باستحالة ان يقدم احد على فعل ما دون ان يأخذ فى اعتباره كمية السعادة التى تنتج عن هذا الفعل والا فسوف يكون مثل هذا الشخص غبيا أو معتوها .

● ● ●

صحيح ان وضعية كونت Comte قد انكرت منذ البداية مبدا بنثام القائل بان الانسان يفضل سعادته على غيره من الكائنات معتبرة ان الحقيقة الاساسية فى الطبيعة البشرية هى ذلك القدر من الحب love الذى يستشعره الانسان تجاه الآخرين . ولكن من وجهة نظر ولاس فان كونت لا يكاد يختلف هنا عن بنثام من حيث ان « العقلية » ذاتها تربط بينهما ، فهو مثل بنثام جعل كل فعل انسانى نتيجة لبحث عقلى يرتبط في الانسان بالبحث عن الوسيلة لارضاء غاية معينة ، وكل ما فى الامر ان الغاية او القوة الاجتماعية التى وصفها بنثام **بالمتعة** قد تغير اسمها عند كونت فاصبحت **الحب** . وكما عبر كونت عن ذلك « فالضرورة لكى نحدد بدقة الموضع الذى يشغله العقل والذى يشغله الوجدان في تركيب الطبيعة البشرية ووظيفة المجتمع .. نعود الى تقرير ان التعاطف « الحب » لا بد وان يكون النقطة المحورية فى الموضوع .. اما الوضع الوحيد الذى من اجله يتكيف العقل باستمرار فانما لكى يصبح خادما للمشاركة الاجتماعية .. »(١٢) لقد فشلت الوضعية فى ان تكسب لنفسها شيئا من الاثر الذى مارسته او خلفته البنثامية ، والسبب هو طبيعة عقل كونت ذاته التى يصفها ولاس بانها لا وضعية بالمرة « فكونت عندما يتحدث عن التاريخ لا يستطيع المرء ان يتاكد ما اذا كانت قوانينه تعميمات يستخلصها من حقائق مسجلة او انها قضايا تقوم على احتياجات اخلاقية افتراضية .. » (١٣)

وبمثل هذا الروح النقدى مضى ولاس يعيد تفسير مناهج سيكولوجية الجماهير كما عكستها نظريات **ثارد و باجت** مركزا انتقاداته على مفهوم التقليد او المحاكاة الذى اعتبر مفهوما محوريا في فلسفتيهما . ولقد تصور والتر باجت الانسان كحيوان قطيعى ، وذهب الى ان الانواع القطيعية لا يدوم بقاؤها الا لان افرادها تقوم بالفعل نفسه بطريقة مشابهة ، اى ان هناك غريزة تقليد عامة تهمل نسخ الافعال ومحاكاتها . وبالقياس نفسه اقام باجت جانبا من تحليله الاجتماعى على غريزة التقليد هذه وذلك على اعتبار ان «استعداد»

---

(١١) Ibid. P. 106.

(١٢) Comte, A; Positive Philosophy (English Translation) 1975· Vol. I P. 11.

(١٣) The Great Society (Op. Cit) P. 116.

الانسان لأن يقلد ما أمامه يعد أقوى جانب فى طبيعته .. » (١٤)

وهكذا الحال ايضا بالنسبة الى **تارد** ، ففى تفسيره للفعل الاجتماعى عن رأى أن « القوانين العامة التى تحكم التكرار المقلد هى بالنسبة الى علم الاجتماع كقوانين الوراثة بالنسبة الى البيولوجيا ، وقوانين الجاذبية لعلم الفلك ، وقوانين التغير لعلم الطبيعة» (١٥)

ويرى ولاس أن الموقف برمته يرتبط ارتباطا وثيقا بقضيته الاساسية عن العلاقة بين النزعات الانسانية والبيئة . فوقوع الاحداث الخارجية كما وقعت على مدى فترة التطور الطويلة قد نبهت الى تلك الافعال التى كان من المحتمل أن تؤدى آنذاك الى حفظ النوع، فأية غريزة معينة قد أصبحت تثار في ظروف بذاتها استجابة لمؤثر بعينه . ولكن بدلا من أن يدرك **باجت وتارد** ذلك ، فقد مال كلاهما الى تبسيط المسألة تبسيطا زائدا لا بقولهم أن الاستجابة لمؤثر يثير الخوف مثلا قد تكون مثيرا ملائما لهذه الغريزة فى المستجيب ، وانما بقولهم انه نزولا على وجود غريزة تقليد عامة فان مرأى الجرى يسبب الرغبة في الجرى ، أو أن صوت الصياح يسبب الرغبة فيه .

وعلى هذا النحو فقد استطاع أن يقدم لنا موقفه الخاص من قضيتهم الاساسية بصدد الطرق التي يستجيب بها الانسان غريزيا لوجود اقرانه . والواقع انه لم يقف عند حد تساؤلهم عن مدى اختلاف خصائص هذه الاستجابات ، شعورية كانت أو لا شعورية اذا ما أثير الانسان بواسطة جماعته ، عنه مما لو أثير بفرد واحد أو أفراد ، ولكنه تجاوز ذلك الموقف الى بحث ما اذا كان الشعور أو الفعل الناتج عن وجود عدد من الاقران فى مجال الاتصال المباشر لحواسنا مما ينتج كذلك بسبب هذه الاعداد الضخمة الذين نقرأ أو نسمع عنهم ولكنهم لا يثيروننا اثارة مباشرة . ويرد على ذلك مؤكدا ان العمل التعاوني الذى يمارسه الناس في المجتمع يرجع لا الى غرائز التقليد والمشاركة والايحاء البسيطة الميكانيكية كما افترض ذلك الاجتماعيون الدارونيون ولكن الى التأثير الناتج فى كل كائن من جراء علاقته بأقرانه الآخرين . واذا كان بعض الاجتماعيين قد ذهبوا الى استحالة وجود عاطفة تتجاوز نطاق حواسنا ، معتمدين فى ذلك على أن ابسط اشكال الحقائق هي تلك التي تأتي الينا مباشرة من خلال حواسنا كما عبر عن ذلك لسلى ستيفن بقوله « ان يكون الناس اخلاقيون لمجرد الرغبة في منح أكبر سعادة لاكبر مجموع أمر مستحيل .. ولكن مايرشد الناس دائما هو علاقتهم الشخصية بالدائرة الضيقة التى يؤثرون فيها حقيقة » (١٦) فقد اعتقد ولاس ان مثل ذلك القول يتضمن خطأ مبالغا فيه : فصحيح ان الاثر الذى يأتي من خلال الحواس يكون أشد عنفا مما لو كان مصاحبا بالتخيل أو الذاكرة ، ولكن حتى هذه الحقيقة لم تمنع شعراء من امثال شيللر من أن يرسلوا قبلاتهم للعالم أجمع معبرين بذلك عن حب حقيقي حتى لأولئك الذين لا يدركون وجودهم الا بخيالهم .

وترجع أهمية هذه الملاحظة السابقة الى أنها تقوده الى تحديد موقفه من مشكلة السلام والحرب . ويعترف ولاس صراحة بأن حزب الحرب مازال يحتل مكانة لها نفوذها بفضل مساندة كثير من الحجج التي تعتمد على فروض

---

(١٤) Bagehot W.: Physics and Politics (Edition of 1906) P. 92.

(١٥) Tarde, G; Laws of Imitation (English Trans.) by; Parsons p. 78.

(١٦) Stephen, L; The English Utilitarians. Vol. II. P. 329.

وتعميمات بيولوجية وسيكولوجية ، وكلها تؤكد أن الحرب هي قانون العالم المتحضر مثلما هي قانون العالم غير المتحضر . ويعني هذا ضمن ما يعنيه أن لا سبيل اذن للتحكيم في المنازعات سوى القتال . ولكن اذا ادركنا ان الافراد قد أصبحوا اليوم يحلون مشاكلهم عن طريق المحاكم بدلا من اللجوء الى المبارزة كما كان الحال قديما ، تبين أنه لا يقوم شيء يحول دون أن تتبع الامم الاسلوب نفسه . وحتى اذا قيل ان الناس لم يلجأوا الى قاعات المحاكم الا مضطرين تحت ضغط القوة فان هذه القوة ذاتها لم تنتج الا عن آلاف القرارات الحرة التى شارك الناس فى صنعها .

أما القول بأن الحرب ضرورية وأن السلم أمر مستحيل من الناحية السيكولوجية فهو بدوره قول يتضمن تقديرا مبالغا فيه . انه قمة ذلك الاتجاه الايديولوجي الذى يجد أساسه فى النزعات والحقائق السيكولوجية التي تقود الى الحرب ، والتي غذتها مسلمات أنبياء القومية ودعاتها من أمثال مازينى وبسمارك القائلة بأن الدولة لا يمكن أن تزدهر الا اذا كانت مركبة من أفراد متجانسين . واذن فيلزم البحث عن أساس آخر جديد يحل محل هذا الاساس فيصبح الوعى بالتغاير والتنوع القومي بدلا من فكرة التجانس العقلى والمدى التي كانت مسيطرة على عقول السياسيين فى منتصف القرن التاسع عشر . ففى ضوء هذه النظرة الجديدة سيكون فى المستطاع الاقتراب من مشكلة الحرب والسلام بمنظار مغاير (١٧) .

● ● ●

التفكير الاجتماعى :

كما أن **كتاب الطبيعة البشرية** فى السياسة كان افضل مدخل لتناول تفكير ولاس السياسي ، فان الوقوف على معالم تفكيره الاجتماعى يتهيأ كأفضل ما يكون من خلال كتابه « المجتمع العظيم » الذى أشرنا اليه من قبل وكذلك كتابه « تراثنا الاجتماعى » الذى الفه فى عام ١٩٢١ . فكلاهما كتب وهو فى أوج نضجه العقلي ، كما أن الكتابين يدوران كلية حول النظرية الاجتماعية ومشاكل المجتمع الصناعى الحديث .

ولعل أحد الدروس الهائلة التي لقنتها الداروينية لجراهام ولاس ولمعاصريه من المفكرين السياسيين والاجتماعيين هو تأكيدها الزائد على التصور القديم للانسان بوصفه حيوانا . فالانسان سواء كان حيوانا سياسيا كما اصر على ذلك أرسطو ، أو أرقى الحيوانات ، كما نادى بذلك هربرت سبنسر فى العصر الفيكتورى ، لا يعدو أن يكون حيوانا أولا وأخيرا وليس كائنا عاقلا صرفا يعتمد اعتمادا كليا على عقله وفى كل الاوقات . ومن ثم فلابد فى المحل الاول أن توضع غرائزه وعواطفه وانفعالاته موضع الاعتبار ، وفى المحل الثاني أن يدرس بوصفه عضوا فى الجماعة الانسانية كلها .

ولقد كان ولاس دائم التأكيد على نظرته هذه للانسان ، فهو قد ميز فيه بين قسمين: أولهما يتركب من كل ما يسعي الانسان للحصول عليه دون ما يتعلمه من الآخرين ، بينما يشتمل ثانيهما على المعرفة والحيل والوسائل والعادات التي تعتبر فى الاصل اكتسابا شخصيا للافراد ، وينتقل من جيل لآخر بواسطة عمليات التعلم والتعليم الاجتماعية ، وهو ما يطلق عليه لفظ التراث الاجتماعى Social Heritage الذى يختلف في مداه ومن حيث درجة الاعتماد عليه في الانسان عنه فى سائر الحيوانات الاخرى ، ذلك أنه فى أثناء تطور الانسان بالذات امتزجت كثير من التغيرات البيولوجية بناحية الاكتساب

---

(١٧) Human Nature in Politics (Op. Cit) P. 282.

هذه ، بل واصبح الانسان ـ وخاصة بعدما ظهرت اللغة المتعارف عليها ـ يعتمد بصورة متزايدة على تراثه الاجتماعى الى درجة يصفها ولاس بأننا قد أصبحنا « طفيليين بيولوجيا على تراثنا الاجتماعى » (١٨) .

ولقد كانت **الداروينية** تؤكد مفهوما اساسيا لعملية التحول الاجتماعى والعوامل التي تكيف هذا التحول وتؤثر فيه ففسرت التطور الاجتماعى فى ضوء مبادىء الوراثة والانتخاب الطبيعي مؤكدة بذلك أهمية الحرب والصراع كعوامل رئيسية وسائدة . ولكن فى الوقت الذى سار بعض المفكرين (باجت مثلا) بالاتجاه البيولوجي بالمفهوم الداروني الى اقصى مداه فقد استطاع ولاس تجاوز هذا الموقف عندما تحددت نظرته الى الانسان كحيوان بنائي مدفوع بغريزة متوارثة الى أن يعيش مع أقرانه . وصحيح أن باجت حاول اقامة نوع من المصالحة أو التوفيق compromise بين الصراع والتعاون ، فذهب فى ضوء مبدئه الاساسي القائل بأن السياسة مسألة زمان كما أنها مسألة مكان الى القول بأن التعاون الذى نلمسه فى المجتمع الحديث ليس سوى نتاج للصراع الدامى الذى كان في الماضى ، كما ان هذا التعاون بين أعضاء المجتمع ، ولئن كان بمثابة الأساس للحضارة الانسانية فهو لم يحدث الا من خلال سلسلة طويلة من الصراعات المستمرة . ولكن من الواضح أن هذا الموقف لا يعنى سوى أنه وضع مبدأ الصراع فى المقدمة وتجاهل بذلك الحقيقة التي اكدها ولاس وهى أن الانسان بوصفه حيوان قطيعي قد ورث ضمن ماورث بضعة غرائز معينة تدفعه الى صور طبيعية من تعاون الجماعة . فكأنه قد اعتبر بذلك التعاون غريزة طبيعية حقيقية في الانسان وليست مظهرا عرضيا مصاحبا للتنافس والصراع ؛ أو اثرا من آثار مرحلة تعاقدية اضطر فيها الانسان اليها فى احدى مراحل تطوره .

عند ولاس اذن صورتان ، أو بالاصح مستويان من السلوك ؛ أحدهما السلوك الطبيعى (الغرزى) الموروث بيولوجيا ، وهذا لم يكن كافيا وحده لتحقيق وجود الانسان المتحضر حتى ظهر المستوى الثانى من السلوك المتوارث اجتماعيا . وفى هذا الاخير تدخل المجهود الذهنى والعضلى بدرجة ملحوظة . وتقوم المشكلة الاساسية فى القدر المطلوب من التوافق بين التراث الاجتماعى من ناحية ، والطبيعة البشرية التي لا توجد فى اية فترة من فترات حياة الانسان وجودا حقيقيا من ناحية ثانية ، كى يعملا بطريقة متسقة تزيد من تأثير العمل الاجتماعى التعاونى وتوجيهه . ومن هنا فقد كان من الضرورى ـ فى رأيه ـ القيام بمراجعة النظام الاجتماعى والبحث في طبيعته طالما ان قدرته على القيام بوظيفتي توجيه التحول الاجتماعى وتنظيم التعاون الاجتماعى تتحدد كثيرا فى ضوء هذه الطبيعة وبنائها .

● ● ●

نقد الدولة

منذ ان نادى افلاطون بان العدالة ليست حكم الاقوى ، اخذ الناس يصدرون حكمهم على الدولة بناء على حكمة الاهداف التي تعمل على صونها وحمايتها . ويمكن القول بأن الدول الصناعية اثناء القرن التاسع عشر قد تبنت وسيلتين هما: اولا الدولة الديموقراطية التي تقوم على الاقتناع بحكم الاغلبية واساليب العمل البرلماني ، وثانيا تراكم رأس المال في المؤسسات والاتحادات والتعاونيات . ولكن

---

(١٨) Our Social Heritage (Op. Cit.) P. 19.

على حين تبين أن الديموقراطيـة تضـمنت تشكيل الاحزاب القومية والتخصص واحتراف العمل السياسي بكل ما ينطوى عليه هذا من اصـطراع ومسـاوىء ، فقـد أدى اتحـاد الراسماليين فى شركات مساهمة الى التوريث وتراكم الملكية تراكما جامدا فى يد طبقة واحدة. ونتيجة لتعثر كل من الوسـيلتين بدات فى أنحاء كثيرة من العالم حركة نشطة تجمعت فيها بالتدريج الطبقة الكادحة الواعية ومـن تعاطف معها من المثقفين والحرفيين ، متحولين جميعا الى صورة من صور الاشتراكية النقابية أو الوظيفية ، بهدف خلق مجتمع مهنى كأداة لاخضاع كل من الديموقراطية والراسـمالية على السواء . وكان طبيعيا ان يصاحب ذلك تغيير أساسى فى النظرية الاجتماعية . وقـد تساءل ولاس عما اذا كان خلق مثـل هـذا المجتمع المهنى ، وتدمـير ـ أو على الاقل ـ ـ اضعاف الديموقراطية الاقليمية بصـورة خطيرة مما يساعد على ايجاد النمط الطيب للمعيشة .

ولعل ابرز ما يتميز به التنظيـم النقـابى للمجتمع بصفة عناصر هي اولا الاصرار على مايسمي (ادارة المنتجين) . فالعمال بوصفهم منتجين يجب أن يتولوا ، لا الادارة فى المجال الاقتصادى والصـناعى فحسـب ، ولكن في المجال السياسى كذلك . وثانيا العداء الصريح للدولة باعتبارها نظاما برجوازيا . فالدولـة ليست أداة للاسـتغلال الراسمالي للمجتمع كما هى الآن فحسب، بل انها بطبيعتها الذاتية سـتظل طبقة وسطى فى مجتمع الغد ، كمـا انها باعتبارها تنظيما مركزيا اميل الى الروتين وينقصها الخيال والمبادأة ، على حين تؤدى ادارة المنتجين الى حرية العمال وكفاية الصناعة. وثالثا ميل واضح الى اقامة التنظيم الاجتماعى على أصغر وحدة صناعية وهو ما يعتبر في الواقع اهم ما يميز المذهب النقابى فى شكله النموذجى .

الدولة اذن أيا ماكانت وظيفتها لا تعدو ان تكون أعظم التجمعـات او المؤسـسات فى المجتمع ، وبالتالي فليس ثم ما يمنع اطـلاقا من اعتبارها جزءا من الجهاز الادارى يمكن الغاؤه بمجرد ابتكار جهاز يفوقه ويفضله . والواقع انه اذا صح هذا التشخيص الـذى تسوقه النقابية لطبيعة الدولة ووظيفتها فـان نتيجته الحتمية هي سقوط ادعائها للسيادة على الارض ، وتحـطيم الحجج التي طالمـا اسـتخدمها الهيجليون للبرهنة على وجـود شخصية للدولة فوق شخصيات الافراد الذين يكونونها وتعلو عليها . فالى أى مدى يمكن اذن قبول هـذا التصـور وتحطيم الدولة التقليدية القائمة التي تبناها الجميع تقريبا ؟

ان المجتمع الصناعى الحديث يقتضي تنظيما اداريا وفنيا بالغ الدقة والاحكام . ومن المسلم به أن الدولة تمارس اليوم نشاطا اقتصاديا متصلا ومتزايدا . والملاحظ أن هذا النشاط يطابق نشاط الدولة المتسلطة والدولة الديموقراطية سـواء بسواء ، ذلك على الرغم من أن المبادىء التركيبية مختلفة فى كل منهما، فهل يكون هذا الاختلاف حيويا كما يبدو ؟

ان اى شكل للتسلط أو الطغيان يسعى الى تبرير وجوده عن طريق واحد من سـبل ثلاثة فهو اما ان يدعى قيامه بموجب حق الهى، أو ان يدعى الحكم لصالح المحكومين بموجب ارادتهم الحقيقية ، أو أن يدعى تمتعه بموافقة هؤلاء المعلنة أو المضمرة . واذا كانت أحداث التاريخ قد اثبتت زيف الادعاء الاول فيتبقى

اذن الادعاءان الآخـران المتضمنان بصورة أو بأخرى موافقة المحكومين . ولكن ولاس يلاحظ انهما يقومان على المبدأ نفسه الذى تبرر به الدولة الديموقراطية أيضا وجودها وان كان الخلاف الاساسى هو أن اية نظـرية للدولة الديموقراطية سوف تبقىعقيمة ان لم تتضمن اعترافا صريحا بالحقوق السياسية الفعليـة وبحق اعضاء الدولة فى ترجمة هذه الحقوق فى عمل تعاوني شامل . ومع انه قد يبدو ان التنظيم المهنى اقدر على تحقيق ذلك من حيث انه ينظر الى الافراد على انهم متباينين مؤهلين لـبل مختلفـة من العيش وليس كقوائم متوحدة بنموذج معين وهذا في ذاته مسـألة حيوية ، ومن حيث أن الميزة الكبرى للدولة هى تأكيدها للاختلافات اكثر منه للتشابه بين الافـراد ، الا ان التمعن فى شـكل التنظيم الاجتماعى القائم على المبدأ الوظيفى يكشف بدوره عن وجود عناصر معوقة تشترك فيهـا انواع المهن المختلفة . فالعقل المهني يبدو ـ من ناحية ـ عقلا محافظا ، وقد يمثل هذا عقبة امام ما يتطلبه الانتاج الضخم من تغيـير وتطوير . ومن الناحية الاخرى ، فاذا كانت عملية ادارة المصـانع أو التجارة تعتمـد على الانتخابات في دوائر انتخابية تشتمل على كل الصناعات ، فالأرجح انهذه الانتخابات سوف تصبح بدورها مسألة مهارة متخصصة ، بـل ان شيئا لن يحول دون أن تحاول النقـابية احتكار الانتاج فى صـناعات معينة لخـدمة افرادها وفى هذا ما فيه من تهـديد بانقلاب الامور الى فوضي مهنية قد تفوق الفرص أمامها لنهب المجتمع فرص المخدوم الرأسمالي نظرا لكمال احتكارهم للانتاج .

لقد تتبع ولاس هذه الاتجاهات جميعها ببراعة ملحوظة فى كتابيه « **المجتمع العظيم** » و « **تراثنا الاجتماعى** » واكد انها ترتبطجذريا بالعديد من المسائل ذات الطبيعـة الجـدلية العالية كمسألة العلاقة بين الحكومة المركزية والتنظيمات النقابية . وكما انها تثير مسـألة تحديد مناطق السلطة للمستهلكين والمنتجين كل منهما بالنسبة الى الآخر فىكل منالسياسة والصناعة فهي تثير بالدرجة نفسها مسألة ما اذا كان ضروريا ـ بداءة ـ لأى مجتمع على هذا النسق أن يحتفظ بشكل من اشـكال السلطة المركزية يحملولو بعض الشبهبالدولة الموجودة .

لقد كان ولاس يرى ـ وهو يتفق فىذلك مع النقابية ـ ان الدولة قد نمت الى حد كبير لتمثل أو تعبر عن ارادات الافـراد تعبـيرا صحيحا ، وان القوى التى **تعمل فى المجتـمع** قد أصبحت شديدة الاتساع وبناء الحـكومة شديد التعقيد والعوامل التى تحدد الحوادث متشابكة لدرجة انأصبح الناس أبعدمايكونون عن حكمها . والواقع انه فى ضوء هذا يسـهل فهم ما يبدو فى بعض آرائه من تعاطف مـع النقابية . فلقد كان يعتقد انه اذا أريد انعاش ثقة الناس فى العمل الاجتماعى فلابد من اعادة توزيع وظائف الدولة ، بمعنى ان تتهيأ للفرد امكانية التحاقه بالقوى التنفيذية التى تهتـم بكل من الانتاج والادارة . واذا كان قد انتهى صراحة الى أن الاشتراكية النقـابية ليست قادرة بذاتها ـ الآن على الاقل ـ على أن تكون أسـاسا كافيا لارادة التنظيـم فى المجتمـع العظيم (١٩) فان هذا الوضع بذاته يسـتوجب ـ فى رأيه ـ القيام بتحليل جاء وتمتد آثاره

(١٩) Ibid, P. 154.

لتشمل كل التنظيمات الارادية التى يمكن للعمل التعاونى أن يتم من خلالها ، وبشرط الا يكتفى فيه بمجرد تصنيف أشكال التعاون الثنائى الذى يقوم حاليا، وانما يجب أن يذهب أبعد من تصور حكم الغالبية البسيطة وحقوق المهنيين واصحاب الملكية الشرعية . وعلينا فى النهاية أن نختار بين أن نعيش فى نطاق ضيق، أو أن ندفع ثمن مزايا العيش فى المجال الواسع قلقا مستمرا ، بل أن الجهود فى سبيل اختراع تنظيم ارادى أفضل مما هو موجود حاليا ستظل دائما شيئا يستحق أن يبذل من أجله كل عناء ، فذلك بالتأكيد أكثر فعالية من مجرد الاعتماد على أى مبدأ أوحد سواء كان مبدأ التمثيل أو الملكية أو المهنية .

●●●

التصور الاشتراكى للملكية :

يكشف تحليل ولاس للمجتمع الرأسمالى عن اعتقاده بصعوبة حدوث تغيير حقيقى فى هذا المجتمع طالما ظل التناقض فى أسلوب الانتاج الرأسمالى قائما بين المسحة الاجتماعية للانتاج — من حيث أن العمال فى مجموعهم يقومون به — وبين صورة الملكية الخاصة لأدوات هذا الانتاج .

ومن الناحية الاخرى فلعله قد وضح لنا الآن من خلال تحليله لبعض التصورات والاتجاهات الاشتراكية السائدة أن الاشتراكية لا تقوم عنده على مسلمات أو أشياء نهائية ، ولكنها تقبل حقيقة أن المجتمعات تتحول وتتغير ، ومن ثم يستحيل على نظرية اشتراكية مؤسسة على ظروف ماضية أن تبقى دون ما تغيير أو تحوير ، وهكذا انتهى الى أن المفاهيم الاشتراكية تحتاج الى نظرة جديدة لتكون أكثر اتساعا وتوافقا والظروف المعاصرة للمجتمع العظيم .

ولقد كانت الماركسية فى العقود الاخيرة من القرن الماضى تمثل أملا للكثيرين يطلون به على سعادتهم وتحطيم سجنهم القاتل تحت سيطرة القوى الرأسمالية . ومع أنه يمكن القول بأن ذلك كان بمثابة اعتقاد عام شارك فيه الجميع ، فان ولاس على النقيض من ذلك قد شك فى أنه تحقق شىء من كل هذا ، فالفرد مازال مضطرا لبيع عمله للرأسمالى الذى يمتلك وسائل الانتاج . بل أن التجربة ذاتها لكثير من الدول فى أرجاء كثيرة من العالم منذ أواخر القرن الماضى وبدايات القرن العشرين قد سارت فى اتجاه مختلف عن الفرضية الماركسية القائلة بتهيئة الظروف الموضوعية للاطاحة بالنظام الرأسمالى عن طريق الثورة الحتمية لطبقة البروليتاريا نتيجة للتناقض الاساسى الذى قالت الماركسية بوجوده فى قلب المجتمع الرأسمالى .

والواقع أن ولاس ، وهو أحد الفابيين الاربعة الكبار ، كان أمينا للغاية مع النظرة الفابية التى رفضت صراحة الموقف الماركسى فى الصراع الطبقى ، وذهبت بدلا من ذلك الى تبنى وجهة نظر تثق بعملية النمو الطبيعى البطيئة فى التمهيد للتحول الاجتماعى ، وذلك عن طريق نشر الاشتراكية بشكل تدريجى بواسطة الاصلاحات والتأميمات ، واخضاع المصانع والمؤسسات للمجالس البلدية كيما تتحول الدولة الى دولة خدمات عامة . واذ اعتبر أن الديموقراطية المحدودة لابد وأن تكون الخطوة الضرورية نحو الحياة الأفضل فان هذا لا يكتمل الا بتدخل الدولة فى المجال الاقتصادى على وجه الخصوص ، فالاشتراكية فى النهاية

هي « حركة نحو المساواة الاقتصادية تتحقق عن طريق الديموقراطية » (٢٠)

. وليس من شك فى أن الملكية هي حجر الزاوية فى النظام الاجتماعى ، ولا يستطيع أى من انظمة الحكم أن يترك موضوعها من غير تحديد لمعالمه وتبيان لطبيعة دورها فى المجتمع . وقد اعتقد البنثاميون فى امكان تحسين مقدرات الانسان عن طريق اصلاح النظم الاجتماعية وشاركهم فى ذلك الفابيون بوجه عام . ولكن بالنسبة الى ولاس فقد كانت المسألة تنطوى على مشكلة من نوع معين تقوم فى الوسيلة ذاتها لتحقيق هذا الاصلاح ، فعلى حين أراد البنثاميون ترك علاقات الملكية كما هو فقد رفض ولاس ذلك صراحة ، وهدف بدلا من ذلك الى تغيير شكل هذه العلاقات ، الامر الذى كان يفديه باستمرار شكه المتزايد فى امكانية التعاون مع الراسمالية ، خاصة وقد اثبتت الاحداث والتغيرات ، بعد الثورة الصناعية ، انه لا النظرية التى سادت خلال العصور الوسطى عن طبيعة الثروة ، ولا نظرية لوك فى الملكية أو التفسيرات التى خرجها المفكرون منها كانت قادرة على الصمود . فاذا اضفنا الى ذلك حقيقة انه مع تزايد اشتداد عود الطبقات العاملة ونمو الاتجاه الاشتراكى، كان يزيد الميل كذلك الى مناقشة المسألة امكن فهم الدافع الحقيقى لمحاولة ولاس التصدى لمسئولية تصوير علاقات الملكية فى الاشتراكية . فكيف اذن نظر ولاس الى الملكية ومن خلال اية حدود ؟

ان الحقيقة المجردة بأن هناك غريزة للتملك قد دفعت ولاس الى موقف واضح . فطالما ان هناك تسليم بوجود هذه الغريزة فالاجدر أن نسلم بفائدة وجود نوع من الحوافز لدى الافراد يتماشى واياها . وبذا فتصبح الملكية الخاصة حقا لهم ، وان كان وجود هذا الحق لا يعنى أن يكون وسيلة لاستغلال المجتمع او مساندة النظام الراسمالى وتقويته . والواقع ان ولاس يؤكد هنا الطابع الاجتماعى الذى يصبغه على هذا الحق . فالملكية الخاصة لها وظيفة اجتماعية ويجب أن تساهم مساهمة فعالة فى بناء المجتمع الاشتراكى المنشود وفى تطويره ، ومن ثم فيجوز وجودها طالما كانت مرتبطة بجهد الافراد ونتاج عملهم ، بل انها تتفق والعقل حين تكون حاصل الوظيفة . وان كان من المهم ـ وذلك من الناحية الأخرى ـ القول بأن ولاس كان أبعد مايكون عن أن يطلق حق الافراد فى الملكية كوسيلة للاشباع الذاتى الى اقصى مداه ، أو انه أراد تقسيم الملكية جميعها بالتساوى بين الافراد ، فالواقع ان هذا الحق مثله مثل حق الحرية ليس مطلقا ، ولكن يستلزم الأمر وجود نوع من التوازن بين الفرد والمجتمع ، فلا يطغى الفرد وتسيطر فئة قليلة على مقدرات المجتمع ، ولا أن يسيطر المجتمع على نوازع الفرد الانسانية فيهدر كرامته ويمحو ذاتيته ، فالملكية هنا هى ملكية غير مستقلة ، ان صح التعبير ، وتضطلع بوظيفة اجتماعية تسهم فى تحقيق المصلحة العامة .

● ● ●

الادارة الديموقراطية للصناعة :

بالنظر الى معنى الاشتراكية عند ولاس باعتبارها تخصيص انتاجية الدولة للوفاء بالحقوق الطبيعية للانسان فقد اعتبر ان كفالة

(٢٠) Fremantle, Anne; This Little Band of Prophets. (The British Fabians). A Mentor Book 1960. P. 10.

الوصول الى هذه الغاية من أجل ان ينجح المجتمع العظيم فى توفير اكبر قدر ممكن من السعادة لأفراده ، ابرز مشكلات المجتمع الصناعى .

ولقد كان التصور الاشتراكى يستهدف اساسا ـ على الاقل ـ فى صورته الاصلية ـ ازالة التناقض بين الطابع الاجتماعى لعملية الانتاج والطابع الفردى لملكية الثروة ، وذلك بتملك المجتمع عن طريق الدولة لادوات الانتاج . ولكن ما لا حظه ولاس ان مشكلة ادارة هذا الانتاج قد أصبحت اكثر تعقيدا ، كما ان الوسيلة التى يمكن بواسطتها كفالة سعادة العاملين قد أصبحت هامة للغاية بعد ماصارت العنصر الذى لايكفل فقط استمرار نجاح هذا الانتاج وتقدمه ، بل وتجنيب المجتمع العظيم كل ما قد يعترى علاقاته من مظاهر التوتر والصدام . فهناك اذن علاقة وثيقة بين شكل الصناعة الحديثة وبين الهدف النهائى لهذا الشكل ونقصد به انتاج السعادة لمجموع العاملين .

ان وظيفة الدولة الاشتراكية هي أن تهيىء لكل أعضائها ، بصرف النظر عن طبقته الاجتماعية ، فرصة متساوية لتنمية شخصياتهم كما أن مصلحتها فى النظام الصناعى هي حماية كل من المنتج والمستهلك على حد سواء . وذلك على اعتبار أن النظام الصناعى ينبغى أن يستهدف الوفاء بمبادىء العدالة فيوفر للعاملين حياة لائقة مطمئنة ، وأحوالا معقولة وفرصا كاملة للمشاركة فى تقرير الاحوال . فهل نجح التخطيط الاشتراكى للصناعة فى تأكيد هذه العلاقة الحيوية بين المجتمع العظيم والسعادة الانسانية ؟ واذا كان العامل فى ظل النظام الراسمالى قد عجز عن الاهتداء الى ذاته تحت سيطرة الجهاز الانتاجى القائم فهل نجحت الديموقراطية الصناعية فى أن توفر للعامل حرية حقيقية أم مازالت الحواجز تقوم بينه وبين ذلك ، فيظل بالتالى مجرد أداة او وسيلة لهدف أبعد كما هو الحال تماما فى النظام الراسمالى ؟ .

وكمبدأ أساسى مسيطر فقد عنت الديموقراطية الصناعية كل مايقصد بكلمات « علاقات العمل الطيبة » . ولكن اعلان هذا المبدأ لم يمنع من السقوط فى الوضع نفسه الذى تردت فيه الصناعة الراسمالية من حيث الانسياق وراء الرغبة الجارفة فى التفوق الانتاجى فتكررت نتيجة لذلك الكثير من المشاكل والاخطاء التى يعيشها النظام الراسمالى وهو يسعى الى الغاية ذاتها .

ان خضوع العملية الصناعية لنظام ادارى متسلط يقوم على مبدأ الادارة العامة مما يهيىء السبيل الى سيطرة كبار رجال الادارة ، والاغلب هنا ان يتحول العامل الى وسيلة فحسب ، وليس الى غاية فى ذاته . كما أن هذا الوضع يلقى ولا شك بعبء وظيفة التفكير على عقول معينة مماتتوارى معه قدرات الآخرين وامكاناتهم ، وكله يؤدى الى التقليل من شعور الافراد بحرياتهم التى يعتبرها ولاس شرطا جوهريا لازما للسعادة . واذا كانت الراسمالية قد نجحت الى حد ملحوظ فى امتصاص التناقض بينها وبين الطبقة العاملة لخدمة اغراضها ومصالحها فينبغى على النظام الاشتراكى أن ينجح فى الابقاء على جوهر المبادىء الاصلية التى بشرت الماركسية بها ، وهى تؤكد وجود الفرد وتعلى من قيمته . وحين ندرك الفائدة التى يمكن ان نجنيها من وراء حقيقة أن الانسان الذى يناسبه العمل المعين الذى يؤديه سوف ينتج فيه أكثر بكثير من

انسان يكون غير مناسب لعمله سواء بالمزاج او التدريب او بكليهما معا ، فسوف يكون ذلك خطوة اساسية لزيادة التمتع بالعمل الصناعى الحديث خاصة اذا تهيأت لاظهاره سياسات رشيدة تتضمن قدرا اكبر من التوافق بين مناهج العمل والنموذج الانسانى العام ، وتنبنى على فهم اعمق لطبيعة التعاون الاجتماعى الذى يخلقه الاقتصاد المادى من ناحية ، والحب الاكثر ايجابية وتدفقا للعمل الذى يقوم به الانسان من ناحية ثانية .

● ● ●

امكانات التقدم :

لايكتفى ولاس بمجرد تشخيص مشاكل المجتمع العظيم او تقرير ان الوضع قد اوشك على ان « يخرج من يديه » ، ولكنه يعرض تصورا ايجابيا لمقومات التقدم وامكاناته اعتقد انه يساعد على اقامة شكل مرض للتنظيم الاجتماعى . ولقد اعتقد ولاس ان افظع التهديدات لسلطة المجتمع وتماسكه هى تلك النزعات التى اصبح يمارسها الكثيرون من الراسماليين ممن يوجهون قوى اجتماعية لها اعتبارها دون ان يحاولوا صياغة اى هدف اجتماعى . وعلى حد تعبيره هو نفسه « انه تأكد لنا جميعنا فى عام ١٩٣٢ ان حكم رجال الدولة والاداريين قد فشل فى حماية حضارتنا الحديثة من الفموض السياسى والارتباك الاقتصادى والتهديد بحرب مميتة اشد بشاعة من تلك التى شهدتها البشرية فى عام ١٩١٤ . » (٢١)

وترجع خيبة الأمل فى رايه الى عاملين اثنين هما **أولا** فشل الافراد والأمم فى استخدام الاختراعات والاكتشافات من أجل الخير الاجتماعى . **وثانيا** النمو غير المتسق للعلم المتخصص ، اذ ظل العلماء يرفضون باستمرار قبول مسئولية النتائج الاجتماعية لاعمالهم ، وكثيرا ما كشف تاريخ الحضارة عن ان العلم لا يستخدم فقط كقوة بناءة ، ولكنه قد يكون شديد التدمير كذلك ، الا اذا أرشد بفلسفة اجتماعية سليمة واصطبغ بملامح اجتماعية واخلاقية سامية .

● ● ●

الاخلاق السياسية :

كان من الطبيعى أن تؤثر الاتجاهات الجديدة التى اشرنا اليها من قبل والتى اخذت تغير علم السياسة فى مجريات الأمور بوصفها هي أيضا قوى سياسية جديدة . ويرى ولاس ان خطوة اساسية للتقدم تقوم فى محاولة فهم ابعاد هذا التأثر ونتائجه ، خاصة فى ارتباطاتها اخلاقياتنا السياسية وتلك التصورات والمفهومات التى تمثل مبادىء وقيم السلوك السياسى . ووسيلته الى ذلك القاء الضوء على العلاقة بين العملية ذاتها التى يشكل بها السياسى آراءه وأهدافه ، وتلك التى يؤثر بواسطتها فى آراء الآخرين وأهدافهم . طالما ان هذه العلاقة تمثل عنده أهم المشكلات الخاصة بالسلوك السياسى .

ولقد كان الديموقراطيون الأول ينظرون باستمرار الى التفكير المنطقى على انه طريقة عمل العقل الضرورية عندما يواجه مشاكل تهدد مصالحه ، ومن ثم افترضوا ان المواطنين

---

(٢١) Wallas. G.; Social Gudgment, George Allen & Unwin, Ltd·, London PP. 15, 16.

فى ظل الديموقراطية سوف يوجههم التفكير المنطقى بالضرورة عندما يستخدمون اصواتهم . ولكن هذا الافتراض لم يعد هناك ما يبرر التمسك به ، ذلك أن قدرة المرشح على التفكير المنطقى سرعان ما تتعرض مع تعمقه التجربة السياسية لنوع من التدريب الذى يباعد بينه وبين التقاليد الاخلاقية ، فهو سيدرك أن النجاح فى السيطرة على القوى السياسية انما يتوقف على مهارته فى أن يقدر العوامل المشتركة فى الطبيعة البشرية ، كما يتضح لديه أنه لا يعتمد فى التأثير فى مستمعيه على عملية التفكير المنطقى التى قد يصل هو بها الى آرائه ، وانما من خلال نظرة اكثر واقعية تعتبرهم مخلوقات لا عقلية بحتة مكونة من مشاعر واحاسيس وعواطف وانفعالات يتعين عليه ان يفهمها ويسيطر عليها : ان الانسان فى الديموقراطية المعاصرة قد أصبح فى حاجة الى مزيد من المعرفة بذاته وما يقوم فيهما من نزعات . ومع انه لايعتقد فى كفاية هذا وحده ليترك آثارا لها فعاليتها ، لأن المعرفة بالذات ليس من المتوقع ان تنمو بالسرعة التى ينمو بها الفن السياسى فى السيطرة على النزعة ، فيكون الواجب اذن العمل على زيادة فعاليته باعتناق متعمد ومقصود لمفاهيم فكرية واخلاقية جديدة تهيىء لايجاد تصور اكثر انسجاما بين العقل والهوى ، أو بين الفكر والنزعة فى الدوافع السياسية . ويرى ولاس أن فكرة العلم Science الواعية فى مقدورها أن تتيح لنا ذلك ولكن شرط أن تتجاوز تلك المعارضة القديمة بين العقل والعاطفة ، أو أن العقل هو ضد الشعور ، فمصدر قوة فكر العلم كان دائما انها تمس مشاعر الناس وتستمد قوة دافعة للفكر من انفعالات الاحترام وحب الاستطلاع والامل اللا محدود .

واذا كنا نعلم أن هذا « التعلم » المتعمد للحقائق الفكرية والعاطفية فى طبيعة الانسان ما زال يتطلب قدرا زائدا من التفكير والملاحظة المنتظمين ، فمن الممكن التغلب على هذه الصعوبة ولو جزئيا بالعمل على نشر فكرة العلم الواعية — بالمعنى السابق — لتصوغ عقول وارادات الآخرين . فعندئذ سوف يحل مفهوم الانسجام بين الفكر والانفعال فى أعمق مناطق وعينا الاخلاقى ، ولن يكون السياسى قادرا على السيطرة على نزعات نفسه التى يدرك طبيعتها فحسب ، بل وسيكون بوسعه أيضا ان يفترض فى مستمعيه فهما لأهدافه . وبمثل هذا المجهود العقلى المتفتح يصبح الانسان خادما للطبيعة ، وسيدا لها فى وقت واحد .

القومية والعالمية :

كيف يمكن أن تؤثر هذه المعرفة الجديدة بالميول والاتجاهات فى العلاقات بين الدول والاجناس المختلفة ، وأثر ذلك بالتالى فى امكانات التفاهم والتعاون الدوليين ؟

لقد اصبح المجتمع الدولى يضم عددا متزايدا من أعضاء الاسرة الانسانية ، وازاء هذا الوضع فقد تساءل ولاس عما اذا كان هذا الترابط بين الدول سيستمر فى الشعور أو فى الشكل الدستورى ، أم أن هناك من العوامل ما يؤدى الى تحديد المجال الجغرافى أو العنصرى للتضامن السياسي الفعال ؟ ان أول ما يطرأ على الذهن بصدد هذه المسألة هو تصور أرسطو القديم لها ، فقد ذكر أرسطو أن الجماعة التى يصل عدد أفرادها الى مائة الف نسمة لا تكون دولة مثلها فى ذلك الجماعة التى لايزيد عدد أفرادها على عشرة آلاف شخص ، فاقليم الدولة يجب أن يكون « مرئيا ككل » بعين واحدة . وأقام حجته فى ذلك على أساس من الحقائق التى يمكن قياسها من حواس الانسان والذاكرة البشرية .

ولكن هذا الاساس من الواضح انه لم يعد ممكنا قبوله . واذا افترضنا من ثم ان الدولة يمكن ان تكون اكبر من مرمى بصر الانسان افلا نكون بذلك قد تركنا جانبامقياس ارسطو الحسى ،واصبح بمقدورنا التغلب على مجرد المشكلة الميكانيكية البحتة فى أن تخضع الكرة الارضية كلها لحكومة فعالة ؟ واذا كان قيام مثل هذه الحكومة العالمية مستحيلا ، افلا تكون استحالتها راجعة لا الى حدود حواسنا وسواعدنا ولكن الى حدود قوى تعاطفنا وخيالنا ؟ (٢٢)

على هذا النحو واجه ولاس فكرةالقومية التى قامت بدور فائق فى نمو الوعي السياسى باوروبا اثناء القرن التاسع عشر ، واكد على ضوء تجربة العقدين الأول والثانى من القرن العشرين استحالة قبولها بوصفها حلا لمشاكل هذا القرن ، ذلك أن تطورها قد ظهرت آثاره فى نطاق التوسع الاستعمارى كأوضح ماتكون.

ويؤكد ولاس أهمية تغيير منهج التفكير السياسى السائد حتى الآن كطريق وحيد لتجاوز النظرة القومية ولتدبير الشئون العالمية من وجهة النظر الانسانية . ويرى ان البشر عليهم أن يتركوا جانبا الميل الى تقسيم المجرى اللانهائى للافكار والاحساسات الى طبقات وانواع متجانسة ، وذلك اسوة بما فعله الباحثون فى العلوم الاجتماعية عندما تعلموا بالخيال العلمى معالجة حقائق الطبيعةالمتنوعة دون التفكير فيها أو النظر اليها كمجموعات متفرقة تتالف كل منها من أفراد متشابهين يضمهم مثال واحد . فبمثل هذا المنهج فى التفكير الذى يعترف بالتنوع يصير فى مقدور الانسان أن يتغلب على التعصب الاعمى لابناء الامة الواحدة ، وان يتجه بأفكاره الى ابناء البشر جميعا . فهل يستطيع الانسان حقيقة ان يكتسب بالتعلم عاطفة سياسية تقوم على ادراك التغاير فى الافراد وليس على تماثلهم ، فيتعلم بالتالى التفكير فى الافراد المختلفين الذين يكونون الجنس البشرى بأكمله ؟ هل فى مقدورنا أن نغفل ما قاله عنه مازينى أنه مستحيل ؟ وهل فى استطاعة الفرد أن يحب تلك المئات من الملايين التى لا يراها أو يدرك وجودها الا بفكره وخياله ؟

ان احدا لا يتوقع الآن أن يتكون اتحاد من الكرة الارضية كلها ، او يتنبأ بثقة بأن هذا سيتم فى النهاية . ومع ذلك فان اعتقاد ولاس بأن مجرد الشعور بوجود هدف مشترك للجنس البشرى ، او حتى الاعتراف بأن مثل هذا الهدف ممكن ، سيؤدى الى تغيير معالم السياسة العالمية فورا . ولقد قيل ان القانون الدولى يعتبر اساسا كافيا للتعاون الدولى ، ولكن الملاحظ ان هذا القانون لم يحل عمليا دون وقوع كل ما يتعرض له العالم من كوارث وحروب . ومن هنا فاذا اريد له أن يكون اداة مرشدة للسياسة العالمية ، فيلزم أن يقوم على استقراء صحيح للخبرات والتجارب الانسانية مما يستلزم اخضاع فكرة القانون ذاتها لمزيد من التحليل .

ومن جهة اخرى فان المسالة الاقتصادية تلعب دورا رئيسيا كذلك . وكما يرى فان الامة التى يكون أفرادها اقرب فيما بينهم للمساواة الاقتصادية ، تكون أكثر صلاحية لتحمل مسئولية التعاون الدولى من الامة

---

(٢٢) Human Nature In politics (Op. Cit.) P. 273.

المنقسمة الى اغنياء وفقراء او الى بيض وسود ان اتساع الهوة والتمايز الاقتصادى والقومى بين الدول لن يؤدى الى عرقلة الجهود لاقامة التفاهم الدولى فحسب ، بل سوف يزيد من تعقيد رمز المساواة نفسه بما يعوق امكانية حدوث مثل هذا التفاهم . والواقع أن المنهج الوحيد للتعاون الدولى الذى ووفق عليه حتى الآن هو منهج المساواة النظرية الذى يعتقد ولاس انه يتضمن السيادة الفعلية للقوى على الضعيف بالتهديد المستمر بالقوة . وعلى ذلك فلكى يتحقق هذا التصور الذى يسوقه فيلزم توافر اساسين يتمثل أولهما فى فكرة تحريم الحرب ، لأن فكرة الحرية تصبح بغير ذات معنى مادامت الدولة حرة فى فرض ماتشاء من حلول على جاراتها بالقوة . بينما يتمثل ثانيهما فى ضرورة انشاء منظمات دولية تكون قادرة بحق على تعبئة الراى والنفوذ العالميين ضد أى محارب . وبمثل هذا المفهوم الثابت عن مستقبل التقدم البشرى يمكن الوقوف فى وجه الحقد العنصرى الذى يندلع بين الفينة والفينة فلا يكون تأثيره خطيرا على السياسة العالمية .

ان ما يلاحظه ولاس هو ان المجتمع الدولى قد بدأ ينفر من منطق التجزئة والتفكك ويتجه نحو منطق الدول الكبيرة التى تضم فى داخلها وحدات اصغر متقاربة . فهل يمكن اعتبار هذا التحول بشيرا بأن المستقبل سيحمل معه صورة الحكومة العالمية على نحو أو آخر ؟ لقد حاول ولاس أن يرسم صورة لمجتمع الغد . ولكنه مجتمع أقرب مع ذلك الى تصورات الفلاسفة واحلام المفكرين . وقد يكون صحيحا أن نظرية السيادة المطلقة لم تعد هي التى تتلاءم وظروف العالم المعاصر . . ولكن الصحيح ايضا أن حروبا كثيرة لازالت تنشب فى أماكن عديدة كتعبير عن المبدأ الخطير بأن سلطة الدولة لازالت هي السلطة النهائية كمنطق لايزال له انصاره الكثيرون .

* * *

المراجـع

وبوجه عام تنقسم كتابات جراهام ولاس ومؤلفاته الى مجموعة من الكتب والمقالات نعرض لاهمها حسب ترتيبها الزمنى ، فقد يساعد على رؤية تطوره الفكرى بارتباطاته الزمنية بقدر الامكان .

١ ـ « ماذا تقرأ ؟ » (١٨٩١)

What to Read ?

وهى الكراسة الفابية رقم ٢٩ ضمن سلسلة المطبوعات الفابية المعروفة باسم الكراسات الفابية .

٢ ـ « الملكية فى ظل الاشتراكية » (١٨٨٩)

Property Under Socialism

وهى المقالة السابعة والاخيرة ضمن المقالات الفابية .

٣ ـ « سيرة فرانسيس بلاس » (١٨٩٨)

The Life of Francis Place.

٤ ـ « الطبيعة البشرية فى السياسة » (١٩٠٨)

Human Nature in Politics; Constable Co. London, 1908.

وقد اعيد طبع الكتاب مرتين متتاليتين فظهرت الطبعة الثانية فى عام ١٩١٠ والثالثة فى عام ١٩٢٠ وجددت طبعة ١٩١٠ فى الاعوام ١٩١٤ ، ١٩١٦ ، ١٩١٩ على الترتيب وجددت الطبعة الثالثة فى عام ١٩٢٧ .

٥ ـ « المجتمع العظيم » (١٩١٤)

The Great Society. (A Psychological Analysis);
Macmillan & Co., Ltd., London, 1914.

٦ ـ « تراثنا الاجتماعى » (١٩٢١)

Our Social Heritage; George Allen & Unwin Ltd·,
London‘ 1921.

٧ ـ « فن الفكر » (١٩٢٦)

Art of Thought; George Allen & Unwin, 1926,

٨ ـ « رجال وافكار » (١٩٢٨)

Men and Ideas; George Allen & Unwin, Ltd., London.

٩ ـ « العلم الطبيعى والعلم الاجتماعى » (١٩٣٠)

Physical Science and Social Science.

١٠ ـ « الحكم الاجتماعى » (١٩٣٤

Social Judgment; George Allen & Unwin, Ltd., 1934.

وقد قامت ابنته بنشره بعد وفاته بعامين .

★ ★ ★